تاريخ الإرسال: 2013/08/01 - تاريخ القبول للنشر: 2013/11/26 تاريخ النشر: 2013/12/23

بين الكوديكولوجيا والتحقيق

ميلود فضة

جامعة الجلفة

يحاول هذا المقال أن يعالج إمكانية الاستفادة من «علم المخطوطات» أو «الكوديكولوجيا» la codicologie

في «علم تحقيق المخطوطات»، باعتبار أن الأول يهتم بالجانب المادي المخطوط (أي الورق، الخط، الحبر، الزخرفة وما إلى ذلك)،أما الثاني؛فيهتم بمتن المخطوط،وبعبارة أخرى: هل يمكن أن يستفيد المحقق من علم الكوديكولوجيا أثناء تحقيقه للمخطوط؟ وفي ماذا تتمثل هذه الاستفادة ؟. وقبل الإجابة عن هذا السؤال، يجدر بنا أن نقدم تعريفا موجزا للعلمين معا: (الكوديكولوجيا)، و(التحقيق)، ثم نتناول جوهر الإشكال.

الكوديكولوجيا (la codicologie):

في تحديد هذا المصطلح يقول « أيمن فؤاد سيد «: ((والمصطلح نفسه ذو أهمية خاصة، فهو يتكون من الكلمة اليونانية (Logos)، التي تعني علم،والكلمة اللاتينية (Codex)،بمعنى الرأسي المكون من كرّاسات، والذي حلّ محلّ اللفائف (Volumen) في القرون الأولى للميلاد)) (مقدمة كتاب « المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي»، فرانسوا ديروش،2055م، ص:13).فيكون المعنى: ((دراسة الكتاب أو علم الكتاب)) (انظر: المرجع نفسه، ص: 44_45).

والمصطلح من وضع العالم الفرنسي» ألفونس داف « (A. Dain) (انظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي، شوقي بنبين ومصطفى طوبي، 2005م، ص: 302). وهو عالم فيلولوجي مختص في المخطوطات اليونانية واللاتينية، وقد اقترح عام 1944م لفظ « كوديكولوجيا « (انظر: دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، أحمد شوقي بنبين، 1993م، ص: 11_12).

و((كان هذا العلم يعنى في أول الأمر بدراسة تاريخ المكتبات والمجموعات، إلا أنه أصبح بعد ذلك يعنى على الأخص بدراسة الشكل المادي للمخطوط، بصرف النظر عن نص الكتاب، وموضوعه: حوامل الكتابة (البردي، والرّق، والكاغد)، والمواد (الآلات) المستخدمة في الكتابة (الأقلام، والأمدة، والألواح، والأصباغ)، وشكل الكرّاسات وأحجامها وترتيبها، وشكل الصفحة وإخراجها وتسطيرها، وتزويق المخطوط وتذهيبه، والتجليد أو التسفير...)) (مقدمة كتاب « المدخل إلى علم الكتاب المخطوط»، ص: 14).

ومن حيث المفهوم فإنّ « الكوديكولوجيا « هي دراسة كل أثر لا يرتبط بالنّص الأساسي، وبالتالي بحث العناصر المادية للمخطوط، وبمعنى آخر: هو علم يهدف إلى دراسة كل ما هو مكتوب في الهوامش من شروح وتصحيحات، وما إلى ذلك من معلومات عن الأشخاص الذين تملكوه أو نسخوه أو قرأوه أو وقفوه ثم الجهة

التي آل إليها، والمصدر الذي جاء منه، ثم العناصر المادية المتعلقة بصناعة المخطوط؛ من ترتيب وتوريق وترقيم، وما إلى ذلك، ثم تاريخ المجموعات ووضع القوائم والفهارس (انظر: دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، ص: 13).

ويفرق « أحمد شوقي بنبين « و» مصطفى طوبي « (انظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي،ص: 250). في تحديد « علم المخطوطات « عند القدامى وعند المحدثين؛ فعند القدامى؛ دراسة كل ما يتعلق بالمخطوطات من كتابة وصناعة وتجارة وترميم، وما إلى ذلك، ويعني في العصر الحديث: دراسة المخطوط كقطعة مادية مع العناية بكل ما يحيط بالمتن من حواش وتعليقات، ووقفيات، واستطرادات، وتملكات، إجازات، وما إلى ذلك، ويطلق عليه اليوم في الغرب « الكوديكولوجيا « .

وهناك من يقترح عبارة « أثرية المخطوط « (L'archèologie du manuscrit) للتعبير عن» علم المخطوطات»، مثل « فرانسوا مازي « (françois masai)، وقد ذهب آخرون إلى تسمية العلم الذي يهدف إلى جمع المخطوطات والبحث في مجموعاتها بحثا ماديا بـــ(وثائقية المخطوط) (Archivistique du manuscrit)، وذلك لأن عمل « الكوديكولوجي « قريب الشبه بالطرق التي يستعملها الوثائقي في بحث ودراسة الوثائق (انظر: دراسات في علم المخطوطات، ص: 12_13).

وبالإضافة إلى ما سبق، يقول « أيمن فؤاد سيد « أن الكوديكولوجيا « تعتني أيضا بدراسة الظروف التي أنتج فيها المخطوط، والطريقة التي اتبعها النّسّاخ والورّاقون والمزيّنون والمزخرفون والمجلدون في عملهم، واختلاف البيئة الجغرافية والزمنية، وأثر ذلك على إنتاج الكتاب المخطوط، وتعنى كذلك بدراسة تاريخ النسخة (مقدمة كتاب» المدخل إلى علم الكتاب المخطوط»، ص: 14).

وقبل ظهور « علم المخطوطات « كان الاهتمام ينصب _ ولا يزال _ على المخطوطات كنص، وذلك بتحقيقها ونشرها منذ ظهور الطباعة؛ بالتركيز على تحقيق العنوان، ونسبة الكتاب إلى مؤلفه، وتحقيق المتن، وما إلى ذلك مما يتطلبه تحقيق أي نص مخطوط.

و((كان يجب الانتظار إلى منتصف القرن العشرين لنشهد ميلاد «الكوديكولوجيا» (la codicologie) أو « علم المخطوطات «)) (المرجع نفسه، ص: 13). وقد دخلت المعجم الفرنسي عام 1959م «Grand ditionnaire encyclopèdique« (معجم مصطلحات المخطوط العربي، ص: 302 ، ودراسات في علم المخطوطات، ص:12.هامش).

والكوديكولوجي هو الخبير في مادة المكتوب (l'écrit) تشبه طريقته طريقة العالم الأثري، الذي يحاول إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة (دراسات في علم المخطوطات، ص: 12).

وهذا العلم جديد بالنسبة للتراث العربي المخطوط (انظر: المرجع نفسه، ص:11) فقد ((بدأت كوديكولوجية المخطوطات بالحرف العربي متأخرة عن كوديكولوجية المخطوطات اليونانية واللاتينية، ونستطيع أن نعدّ عام 1986م انطلاقة علم المخطوطات المكتوبة بالحرف العربي، فقد عقد في هذا العام أول مؤتمر عن كوديكولوجيا مخطوطات الشرق الأوسط في « استانبول «، نظمه مؤلف كتاب (المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي) الباحث الفرنسي المعروف (François Dèroche) ... وتتابع عقد المؤتمرات عن علم المخطوطات الشرقية في الرباط سنة 1992م، وفي « لندن « سنة 1993م، وفي « باريس « سنة 1994م، وفي « بولونيا « بإيطاليا سنتي 2000م و2002م...)) (مقدمة كتاب « المدخل إلى علم الكتاب المخطوط «، ص: 14_15).

وبالرغم من مشاركة بعض الباحثين العرب في التأليف في هذا الموضوع اعتبارا من العقد الأخير للقرن العشرين فقد ظلت هذه الدراسات حكرا على الباحثين الغربيين (انظر: مقدمة « المدخل إلى علم الكتاب المخطوط»، ص: 15). ومن مشاركات العرب في هذا المجال، على سبيل المثال، نذكر الباحثين « أحمد شوقي بنبين» و»مصطفى طوبي» اللذين ألّفا : (معجم مصطلحات المخطوط العربي، قاموس كوديكولوجي)، وقد طبع للمرة الثالثة سنة 2005م، وألّف « عبد الستّار الحلوجي»: (نحو علم مخطوط مخطوطات عربي)، القاهرة، 2004م، و» أيمن فؤاد سيد»: (الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات) القاهرة، 1997م، وهي مجهودات مهمة ورائدة بالنسبة للتأليف العربي في علم المخطوطات (الكوديكولوجيا).

ونشير هنا، إلى أن العرب قديما اهتموا بجانب له علاقة بعلم المخطوطات، وإن هذا المصطلح غير متداول في وقتهم، وهذا الجانب هو صناعة الكتاب المخطوط، وأدوات الكتابة والأمدة، وعلى سبيل المثال لا الحصر، كتاب (صبح الأعشى في كتابة الإنشا) للقلقشندي (ت821ه)، تناول فيه (الجزء الثاني _ الباب الثاني) ما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية؛ وهي الخط وتوابعه ولواحقه، وعالجه في فصلين: الفصل الأول حول آلات الخط، وفيه ثلاث أطراف: الأول في الدواة وآلاتها، والطرف الثاني: في الآلات التي تشتمل عليها الدواة، وهي سبع عشر آلة، والطرف الثالث: فيما يكتب فيه، والفصل الثاني: حول الخط وفضله وحقيقته (انظر: صبح الأعشى، القلقشندي،1922م، 2/430_472).

ويذكر « فرانسوا ديروش « أن علم المخطوطات (الكوديكولوجيا) من بين العلوم المساعدة للتاريخ؛ بجمع عناصر تساعد في الضبط الجيد لتاريخ عصر محدد، وبفضل المعرفة للأساليب المستخدمة عبر العصور في صناعة المخطوط، والتي تساعد في إمكانية تحديد التاريخ، وحتى المكان الذي أنجزت فيه نسخة دون أن يكون محدّدين بها

(انظر: المدخل إلى علم الكاتب المخطوط، ص: 54).

ويشير المؤلف السابق إلى أن هناك أدوات تساعد على قراءة الكتابات الممحوة في النسخة المخطوطة؛ منها الكواشف الكيميائية، والقراءة عبر الأشعة فوق البنفسجية، ولكي يؤرّخ الرّق القديم، لا بد من تشاور وثيق بين الكيميائي وعالم تطور الخط (الباليوجرافي) وعالم المخطوطات (الكوديكولوجي) (انظر: المرجع نفسه، ص: 58_61).

التحقيق:

جاء في اللسان: حقّه يحقّه حقّا وأحقّه كلاهما: أثبته، وصار عنده حقّا لا شك فيه. وأحقّه: صيّره حقّا، ويقال: أحققت الأمر إحقاقا إذا أحكمته وصحّحْته. وحقّ الأمر يحقّه حقّا وأحقّه: كان منه على يقين، وتحقق عنده الخبر أي صحّ (لسان العرب، ابن منظور، د.ت، (حقق)).

فأصل التحقيق من قولهم: حقّق الرجل القول: صدّقه، أو قال هو الحق، و» الجاحظ « يسمي العالم المحقق ((محقّا)). والإحقاق: الإثبات، يقال: أحققت الأمر إحقاقا، إذا أحكمته وصححته (تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، 1954م، ص: 42، هامش).

ويذكر « عبد الهادي الفضلي « أن كلمة « تحقيق « هي ترجمة لكلمة (Critique) الفرنسية، ولكلمة (Criticism) الإنجليزية، وذلك لأن كلمة « تحقيق « العربية لم تستعمل قديما في اللغة العربية بمعناها العلمي والاصطلاحي هنا، لأنها معجميا تعني (إحكام الشيء) (انظر: تحقيق التراث، عبد الهادي الفضلي،

1982م، ص: 31_32) ، كما مر بنا في « لسان العرب» سابقا.

وفي الاصطلاح أعطي له عدة تعريفات متشابهة، تتفق فيما بينها أن التحقيق هو عملية بناء النص حتى يكون على الصورة التي تركها عليه مؤلفه. ونورد بعضها الآن:

_ التحقيق: إخراج نص معين في شكل أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها عليه مؤلفه، اعتمادا على المقارنة بين كل النسخ التي بقيت من الكتاب (معجم مصطلحات المخطوط العربي، ص: 74).

_ التحقيق: بذل الجهد، واستقصاء البحث؛ بغية الوصول إلى حقيقة ما قاله مؤلف النص (تحقيق التراث العربي، منهجه وتطوره، عبد المجيد دياب، 1993م، ص: 134).

_ التحقيق: بذل عناية خاصة بالمخطوطات، حتى يمكن التثبت من استيفائها، لشرائط معينة (تحقيق النصوص ونشرها، ص: 42).

_ التحقيق: إحياء نص قديم، وعرضه عرضا علميا دقيقا (المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات، محمد التونجي، 1995م، ص: 172).

هذا، ويرى « عبد السلام هارون « (انظر: تحقيق النصوص ونشرها، ص: 42) أن الجهود التي تبذل في كل مخطوط يجب أن تتناول البحث في الزوايا التالية:

_ تحقيق عنوان الكتاب.

_ تحقيق اسم المؤلف.

_ تحقيق نسبة الكتاب.

_ تحقيق متن الكتاب.

ومن خلال ما مرّ بنا في تحديد الكوديكولوجيا والتحقيق، نحاول أن نجمل الفوائد التي يمكن أن يقدمها لنا علم المخطوطات في حقل تحقيق النصوص في النقاط الآتية:

1_ قد تأتي بعض المخطوطات غفلا من تاريخ النسخ، وبالتالي يصعب تحديد تاريخ نسخها، لكن في الوقت نفسه، قد تحتوي على زخرفة معينة، وهنا يأتي دور « الكوديكولوجي « ليحدد لنا نوع الزخرفة وعصرها، ومن المعلوم أن لكل عصر نوع من الزخرفة، وبالتالي يعرف عصر تلك المخطوطة أو تاريخ نسخها.

2_ ومعرفة نوع المادة التي كتب عليها المخطوط (ورق، جلد ...) وتحديد عمره، يمكن من لنا تقدير تاريخ نسخ المخطوط، وهذا أيضا من اهتمامات علم المخطوطات.

3_ ودراسة الحبر أو المداد الذي كتب به المخطوط وتحليله، يعطي لنا كذلك عمرا تقديريا للمخطوط؛ إن انعدم تاريخ النسخ.

4_ ومن خلال تحديد نوع الخط، نستطيع أن نحدّد كذلك عصر نسخ مخطوط ما، فمن المعروف كذلك، أن لكل عصر نوع من الخط يتميز به، كما يُعرف أيضا، المنطقة التي انتشر فيها ذلك الخط.

5_ وقد تأتي بعض المخطوطات أيضا، خالية من اسم المؤلف، أو اسم النّاسخ، أو تاريخ النّسخ، وهنا يمكن

ملاحظة الإجازات، والسّماعات، والقراءات المدوّنة على هوامش المخطوط، وقد يقودنا هذا؛ إلى اكتشاف اسم المؤلف، أو اسم الناسخ، أو تاريخ النسخ، وذلك لأن أصحاب تلك الإجازات والسماعات والقراءات قد يذكرون اسم المؤلف أو الناسخ أو تاريخ النسخ.

6_ استعمال الكواشف الكيميائية، والقراءة عبر الأشعة فوق البنفسجية، كما ذكر ذلك «فرانسوا ديروش» سابقا، تساعد على قراءة الكتابات الممحوة في النسخة المخطوطة، وهذا يوفّر الكثير من الجهد على المحقق؛ في تسهيل عملية المقابلة بين النسخ، وتزداد الفائدة أكثر إذا كانت النسخة المراد تحقيقها فريدة؛ حيث لا مجال للمعارضة هنا.

7_ ما هو مكتوب على حواشي المخطوط، أو على ورقة عنوانه، قد يقدم لنا ترجمة عن الأشخاص الذين ملكوا المخطوط، أو نسخوه، أو قرأوه، أو يمكن أن نجد عليها ترجمة للمؤلف؛ وهذا ما لاحظته في مخطوط « العيون الغامزة على خبايا الرامزة « للإمام « بدر الدين الدماميني « منسوخ بتاريخ: 1177ه (توجد نسخة منه مصورة بحوزتي، ص:1)، حيث يوجد على الورقة الأولى منه، وبعد العنوان، ترجمة عن المؤلف « الدماميني « ثم يلي هذه الترجمة البسملة، وشرح المؤلف للقصيدة الرامزة.

وإجمالا، إذا كان اهتمام علم المخطوطات (الكوديكولوجيا) ينصب على الجانب المادي للمخطوط، وكان علم تحقيق النصوص يهتم بالمتن، فإنه يمكن أن يستفاد من الكوديكولوجيا في التحقيق، وتتمثل هذه الاستفادة في تقدير عمر المخطوط، وتحديد عصر خط معين، ومعرفة اسم الناسخ، واسم المؤلف، وما إلى ذلك، وهذا كله له فائدة كبيرة للمحقق، خاصة إذا أشكل عليه اسم المؤلف، أو تاريخ نسخ مخطوطة ما، أو احتاج إلى دليل يثبت به النسخة إلى مؤلفها...

وهذه الاستفادة ليست لازمة؛ لأن علم التحقيق له قواعد وأصول خاصة به، كما مرّ بنا سابقا، ولكن إذا تعذّر أو أبهم على المحقق أمر ما؛ كإثبات اسم مؤلف المخطوط ، مثلا، بعد تجريب كل الوسائل التحقيقية، يمكن أن يستعين أو يتعاون مع الخبير الكوديكولوجي في حل هذا الإشكال.

المصادر والمراجع:

_ تحقيق التراث، عبد الهادي الفضلي، مكتبة العلم، جدة، ط1، 1982م.

_ تحقيق التراث العربي، منهجه وتطوره، عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1993م.

_ تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1954م.

_ دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، أحمد شوقي بنبين، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993م.

_ صبح الأعشى في كتابة الإنشا، أبو العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

_ العيون الغامزة على خبايا الرامزة، بدر الدين الدّماميني، مخطوط محفوظ بخزانة « الطيب الشاري «، قصر كوسام، أدرار، بدون ترقيم، منسوخ بتاريخ 1177ه.

_ لسان العرب، ابن منظور، تحق: مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

_ المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، فرانسوا ديروش، ترجمة: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان

للتراث الإسلامي، لندن، 2005م.

_ معجم مصطلحات المخطوط العربي، أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ط3، 2005م.

_ المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات، محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت. لبنان، ط2، 1995م.